سِرُّ إهْتِمامِ المُسْتَشْرِقِينَ الواسِعِ بِعَمَلِيَّةِ جَمْعِ القُرآنِ الكَرِيمِ

(الجزء الثاني)

أ.د. عبد الجبار ناجي
بيت الحكمة - بغداد

فحوى البحث

عرف عن الاستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي اطلاعه الواسع على النشاط الاستشراقي حتى عُدَّ حجة في ذلك. وقد نشرت (المصباح) له ابحاثاً قيمة بهذا الشأن، وها هو ذا اليوم يخوض بحثا يخص الشأن نفسه، يكشف فيه سر اهتمام المستشرقين، وجلهم من اليهود، بمسألة جمع القرآن وتدوينه في عصر الرسول وعصور الخلفاء من بعده. وتتجلى قيمة البحث في تمكن الاستاذ الباحث من معرفة أساليب اولئك المستشرقين في طرح موضوع اختلف عليه المسلمون انفسهم أيما اختلاف ونظراً لطول البحث وأهمية نشره كاملاً قامت (المصباح) بتجزئته على أعداد متلاحقة وهنا نحن اولاءِ ننشر الجزء الثاني منه.

٤. **الوجه الرابع**:-

عندما عجزت أقلام المستشرقين من الجيل الأول عن تحقيق مرماهم في التشكيك بقدسية القرآن الكريم وألوهيته وإنه من نسج وخيال رسول الله –كما تخيل كيتاني المستشرق الإيطالي مؤلف كتاب حوليات الإسلام؛ والمبشر الفرنسي هنري لامانس في كتابه عن محمد –، اتجهوا وجهة أخرى فيلولوجية أيضا أو فيما يتعلق الأمر بالبنية اللغوية للقرآن بالتركيز على المعجم اللغوي وعلى التعبيرات الأجنبية والمصطلحات غير المتداولة في عربية عرب قبل الإسلام. وحقيقة الأمر فإنهم ها هنا توزعوا على اتجاهات متنوعة؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر توجّهوا الى:-

١. الدراسات اللغوية وفقه اللغة

ومن بين أهم هؤلاء المستشرقين المستشرق الألماني غونثر لولنغ Gunther Luling المتوفى في فارنا في عام ١٩٢٨م وهو لاهوتي بروتستانتي ومتخصّص في فقه اللغة؛ حصل على الدكتوراه في العربيات والإسلاميات. وهو يعدّ أحد المستشرقين الألمان الروّاد في دراسة الإسلام في مرحلته المبكرة وفي دراسة القرآن الكريم، وعمل في الشرق فتولى مدير مركز غوثا في مدينة حلب. حاول في دراسته باللغة الألمانية الموسومة (بشأن القرآن وصلة الترانيم المسيحية: Uber den Ur –Qura'n: Ansatze zur Reonstruktion Vorislamischer Christlich Strophenlieder im Qura'n) Ied. Erlangen: ١٩٧٤ الذي ترجم الى اللغة الإنجليزية ونشر في كتاب (تحد للإسلام من أجل الإصلاح: إعادة ما تمّ اكتشافه وإعادة بناء موثوقة لما خفي من تراتيل مسيحية في فترة قبل الإسلام في القرآن اعتمادا على إعادة تفسير للإسلام المبكر Challenge to Islam for Reformation: The Rediscovery and reliable Reconstruction of a comprehensive pre –Islamic Christian Hymnal hidden in the Koran under earliest

Islamic Reinterpretations.

وهدف المستشرق الوحيد أولا لهذا الكتاب هو التصدي والاختلاف مع مذهب العصمة للوجود الكلي المسيحي للعالم وذلك عن طريق زعمه أن القرآن يعلمنا (الأور Ur) المسيحي الحقيقي لكيفية فهم المسيح عليه السلام. ولكن المستشرق خلال تحريه عن هذه الفكرة اندفع بشكل غير مباشر الى مكتشفات أخرى مهمة جدا. فقد وجد بأن نفرا من المختصين بالإسلام من المستشرقين الألمان قد ناقشوا بالفعل مثل هذه النظرية ألا وهي أن القرآن يحتوي على مقطوعات شعرية إستروفية Strophic شاملة باللغة العربية العامية والدارجة. وقد أبعدت مثل هذه الدراسات عندما نشرت ولم تثر أي اهتمام في النقد النصّي للعقيدة. وقد حقّق المستشرق نجاحا في تنمية وتطوير هذه الدراسات المنسية من قبل أولئك المستشرقين الألمان في العقد الأول من القرن العشرين لتكون بالفعل إنجازا. ومن ثمّ تأسيس الدليل على أن التراتيل المسيحية في فترة ما قبل الإسلام موجودة في القرآن في التفسيرات والشروح لحقبة الإسلام المبكر وبأنه من الميسور إعادة مبانيها بصورة موثوقة. ولذلك أطلق المستشرق لولنغ عنوان كتابه Ur Qura'n- بمعنى الوثيقة الأصلية التي نعتمدها في القول بأن النصّ القرآني الحالي قد أقتبس منها. فهذه الأراء التي قمت بترجمتها عن هدف المستشرق في أن أصل القرآن إنما هو هذه التراتيل المسيحية التي كانت متداولة عند العرب قبل الإسلام[1]. وهو رأي لا

(١) ينظر عن غنتر لولنغ International Journal of Middle East Studies، Vol. 13، No. 4. (Nov. ، 1981)، pp. 519 -521. ، Gunter Luling ; Die Wiederentdeckung des Propheten Muhammad. Eine Kritik am "christlichen" Abendland (Erlangen: Verlagsbuchhandlung Hannelore From .Lüling، 1981). Pp. 42 Wikipedia، the free encyclopedia ;idem Uber den Ur-Qur'an: Ansatze zur Rekonstruktion Vorislamischer Christliicher Strph enlieder im Quran. (1st ed. Erlangen 1972)

يعدو أكثر من تكرار ما سبق أن زعمه المشركون بقولهم الذي يردّده القرآن الكريم «بأن النبي ما هو إلّا شاعر أو مجنون، أو كاهن؟؟؟». وإلّا كيف نوفق في تطبيق مخرجات المستشرق لولنغ بأن كتاب الله عبارة عن مقطوعات شعرية مسيحية!. وللإمام علي عليه السلام قول بليغ للردّ على هذه الأوهام والتخرصات. فورد في تفسير أبي عبد الله النعماني وهو من كبار أصحاب أهل البيت ومن كبار مصنفيهم، يرجع تاريخ حياته الى أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فيقول «سأل أمير المؤمنين شيعته عن مقاصد القرآن الكريم فقال: «إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كلّ منها شاف كاف وهي: أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص وفي القرآن ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وخاصّ وعامّ ومقدم ومؤخر وعزائم ورخص وحلال وحرام وفرائض وأحكام ومنقطع ومعطوف ومنقطع وغير معطوف وحرف مكان حرف»[٢]. فهل في هذا الوصف البليغ والشامل والمخصوص في الوقت نفسه من يوافق على ما أورده المستشرق على أن مقاصد القرآن الكريم مؤلفة من ترانيم وتراتيل شعرية مسيحية!. وما أفصح عنه اليعقوبي في تاريخه إذ يذكر هذه الرواية عن رأي الإمام عليّ عليه السلام في أقسام القرآن الكريم فقال ما نصّه «وقال بعضهم إن عليا قال:- نزل القرآن على أربعة أرباع ربع فينا وربع في عدونا وربع أمثال وربع محكم ومتشابه» (اليعقوبي (٢ص٩٣)[٣].

Pp. 5 -9 ; Gabriel Said Reynold " Introduction: Qur'anic Studies and its Controversies" in The Qur'an in its Historical Context. Ed. By Gabriel Said Reynold ، 1st. (Oxford، 2007) Pp. 9 -12. ; Harald ، Motzki ، " Alternative Accounts.. " Op. .Cit. Pp. 64 -66

(٢) النعماني: أبو عبد الله محمد الكاتب النعماني المعروف بابن زينب: تفسير النعماني ص٥.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي (طبعة، دار الفكر، بيروت ١٣٧٥ هجري/ ١٩٥٦م، جزء ٢ ص٩٣.

فأين يا ترى القسم الخاص بالتراتيل والأناشيد المسيحية في القرآن الكريم بحسب تعريف مقاصد القرآن للإمام عليّ إن وجدت، لكان الإمام ربما قد لمّح في قوله البليغ هذا الى وجودها الى جانب قسم الأمثال مثلا!. وأشار الى كونها تشكّل قسما من القرآن الكريم أيضا!.

والأدهى والأمر إن مثل تكهنات هذا المستشرق قوله الجازم والقطعي إن ثلث القرآن الكريم ما هو إلّا مقاطع من هذه الترنيمات أو التراتيل المسيحية الشائعة والسائدة عند عرب الجاهلية قد دخلت في طبقة النصّ العربي من قبل راوية ومزوّر أو عبر تلاعب من هذا الراوية أو ذاك في فترة متأخرة. وعلى أية حال، كما يزعم المستشرق بأنه خلال هذه العملية من التنقيح والتجديد rework للنص العربي للقرآن مع ما يقابله بالسريانية، فبامكان المرء أن يكشف عن المعاني الحقيقية وعندها سيكشف عن الأصل الحقيقي للقرآن نفسه.

يذهب المستشرق لولنغ Luling الى أن القرآن الكريم يتضمن اربع طبقات أو مستويات نصيّة مختلفة Textual Stratas. فالطبقة الأولى، وهي المقصود بها النصّ الأصلي، هو عبارة عن مقطوعات شعرية أو تراتيل وترنيمات إستروفية Strophic Hymnal، صاغتها وألفتها الجماعات المسيحية في مكة. وهذه المجموعة المسيحية تتألف من كلّ من المؤمنين الذين يعتقدون بالثالوث المسيحي Tinitarian ومن غيرهم ممّن ليسوا على هذا المذهب الثالوثي. وأتباع المذهب الثالوثي كانوا من أنصار المذهب النيقوي أي الذين ينتسبون الى المجمع المسكوني الذي انعقد في نيقية في آسيا الصغرى عام ٣٢٥م. وهو المذهب التابع الى الإمبراطورية البيزنطينية؛ في الوقت الذي يؤيد فيه الآخرون التعاليم القديمة الحقيقية للمسيح نفسه. وهي أنه كان ملكا (من الملائكة) سماويا إلآهيا angle متجسداً بهيأة مجلس كنسي مهمته تحطيم ودحر الهرطقات ودحر اليهودية

التوحيدية الموجودة آنذاك في المنطقة. أمّا الطبقة الثانية Hymnals فتتألف من مقاطع مأخوذة من تلك التراتيل والترنيمات، تلك التي حُقّقت وأُلفت بصيغة إسلامية في زمن محمد. والطبقة الثالثة (التي يطلق عليها Stratum Sections تتضمن تلك المقطوعات الشعرية التي قد صنفت في عهد محمد، وهي ذات معنى إسلامي حصرا. وأمّا الطبقة أو المرتبة الرابعة وهي الطبقة الأكثر حداثة فهي عبارة Altered Sections عن تلك المقاطع الشعرية التي غيّرها وبدّلها المسلمون المحمديون في فترة متأخرة خلال فترة النسخ أو التدوين العربي، وهي العملية التي مرّ فيها النصّ القرآني من مرحلة الخط الناقص defective أو المشوّه الى الخط التام والكامل plena الأورثوغرافي[٤].

وفي ختام نظريته الفيلولوجية يصل المستشرق لولنغ الى نتيجة نهائية nut shell مفادها إن القرآن الكريم إن هو إلّا نتاج تنقيحات وتعديلات نصيّة لتلك المقاطع الشعرية والتراتيل المسيحية في فترة متأخرة من عصر النبي[٥].

ثمّ يأتي عالم فيلولوجي آخر بعد المستشرق لولنغ Luling ليفترض نظرية لغوية أخرى في تفس النصّ القرآني؛ وتستند نظريته على تأثير اللغة الآرامية –السريانية. إنه العالم كرستوفر لكسمبيرغ Christopher Luxemberg عالم اللغات السامية القديمة، له مؤلفات كثيرة ولكن نجمه العلمي قد سطع في سنوات ما بعد سنة ٢٠٠٠م بعد صدور كتابه الأول الموسوم (القراءة السريانية –الآرامية للقرآن: مساهمة في ترجمة لغة القرآن.

The Syro –Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language

(٤) See S. Z. Chowdhury، "Issues in the studies of the Qur'an: The Ur-Qur'an of Luling ; Donner، F. M. " The Qur'an in Recent Scholarship " in The Qur'an in its Historical Context (Op. Cit.) Pp. 38 –39.

(٥) Luling ، Op. Cit.

of the Qur'an (German edition ٢٠٠٠، English translation ٢٠٠٧) وطبع الكتاب في سنة ٢٠٠٠م وبعدها ترجم الى اللغة الإنجليزية في عام ٢٠٠٧م. يطرح المستشرق لكسمبيرغ مسألة لغوية مهمة: إذ يرى بأن اللغة السريانية – الآرامية كانت هي اللغة المشتركة Lingua Franca في عموم المنطقة التي تتحدث باللغة العربية في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ثمّ جاءت اللغة العربية لتحل محلها في مرحلة متأخرة من تاريخ العرب قبل الإسلام من قبل العرب الذين ولدوا في بلاد الشام وتأثروا بالثقافة السريانية– الآرامية. إن مناقشة المستشرق تتركز على أن القرآن الكريم قد سيء فهمه وسيئت قراءته وقد سيء كذلك ترجمته لمدة قرون. فالقرآن إن هو إلّا مجموعة خليطة من الكلمات العربية والسريانية والآرامية. ويرى أيضا إن اللغة التي ألّف فيها القرآن في المرحلة الأولى لم تكن مقصورة على اللغة العربية فحسب كالذي زعمه مفسرو القرآن الأوائل، لكن الأصح من ذلك إن جذورها تتصل باللهجة المحلية السريانية – الآرامية Syro –Aramic لقبيلة قريش المكية في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وهي القبيلة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بتأسيس وبداية الدين الإسلامي[٦].

وقد استند في آرائه هذه الى نسخ قديمة من القرآن لم يعرض شيئا عن طبيعتها ومحتوياتها وعرض صورة لورقة من أوراقها، تلك التي خدمت هدفه من أن أجزاء من كتاب الله قد اقتبست من النصوص التي سبق وجودها عند المسيحيين الآراميين والتي قد سيء تفسيرها من قبل العلماء المسلمين المتأخرين. على أية حال فالمستشرق لم يدلل على رأيه باستشهادات من تلك

(٦) Harald Motzki ; Alternative Accounts on the Qurq'n's formation " in the Cambridge Companion to the Qura'n ، ed. By Jane Danner Mcauliffe، 1ed. (Cambridge University Press، 2006) Pp. 65 –67.

التراتيل والترنيمات التي تأثرت بها الآيات القرآنية، وليس هناك من بيّنة على مدى هذا التأثير أإنه ترادف في الشكل أم في المضمون أم في في كلمات أجنبية سريانية وغير سريانية تردّد ذكرها في آي القرآن الكريم. آخذين بنظر الاعتبار أن القرآن نزل بلغة عربية مفهومة وواضحة ومتداولة في مكة أو في الجزيرة العربية برمتها.

ولا بدّ لنا من أن نذكر في هذا الميدان اللغوي البروفسور يهودا دي نوفو Yehuda de Novo المتوفى عام ١٩٩٢م. إنه عالم آثار معروف في الشرق الأوسط كان يعيش في إسرائيل؛ فهو يعتمد على مصادر أساسية أخرى في الوصول الى أهدافه. فركّز على النميّات Numasmtic وعلى النقوش وعلى بقايا الآثار التي وجدت في صحراء النجف في الأردن(*). فأسّس على هذه المصادر الأثرية لأجل بناء التاريخ الإسلامي المبكر للبنية اللغوية للقرآن بناءا جديدا عن ما هو مألوف. فقد اكتشف نقوشا في صحراء النجف في إسرائيل، ونشر حوالى أربعمائة نقش منها في (نقوش عربية قديمةمن النجف Ancient Arabic Inscription from Negev.. وقد قاده هذا الكشف.

وقاد عالم أثري آخر هو جوديث كورين Judith Koren الى محاولة لإعادة دراسة أصول الإسلام والتاريخ الإسلامي المبكر. فحقّقا عملا مشتركا عنوانه (The Origins of Islam: Crossroads to Religion Arab and the Arab State)(٧). عرضا نظريتهما بشأن أصول وتطور الدولة الإسلامية والدين الإسلامي. ويهودا نوفو De Novo كما هو الحالة بالنسبة الى غيره من

(*) ليس المقصود بالنجف هنا النجف العراقية وانما هي صحراء في الاردن تلفظ بالقاء الأعجمية (Negev)، وتعرف اليوم بـ(صحراء النقب).

(٧) See De Novo " Towards a Pre -History of Islam " in Jerusalem Studies in Arabic and Islam (17. 1994) Pp. 125 -126.

المستشرقين، في نظرتهم تجاه الأحاديث والمرويات التاريخية إذ هما يتجاهلان ويتغاضيان عن المرويات التاريخية التي تعرف بالسلاسل السندية في بناء الرواية في أحداث التاريخ الإسلامي. فهو –أي نوفو –يعتقد أن الوثنية في الحجاز في العصر الجاهلي هي في الواقع حقيقة موضوعية أو مشروع خلفي Back Project للوثنية في النجف في الأردن. وحاول إعادة مباني ولادة الإسلام مستعملا الحفريات الأثرية وعلم النميّات والنقوش الموجودة على الصخور. وأظهرت دراساته التي انسجمت وتوازت مع البحوث الأثرية تلك التي لم تظهر أي أثر يدل على وجود الجاليات أو المستعمرات اليهودية في خيبر وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية كالذي يعتقد فعلا بوجودها في دراساتنا لتاريخ المدينة المنورة. وخلاصة دراساته عن القرآن الكريم قوله الآتي "في الحقيقة أن القرآن يحتوي على الكثير جدا من الكلمات والعبارات أو الشعارات الموجودة على النقوش الإسلامية الي ترجع الى القرن الثاني بعد الهجرة" ويؤكد نوفو على أن الاعتراف بالقرآن canonize بأنه الكتاب الرسمي المتداول إنّما جاءت في فترة متأخرة أي في فترة ما بعد وجود هذه الكلمات والعبارات التي دخلت ونفذت الى المعجم الديني الإسلامي[٨]. وللمستشرق De Novo عدّة بحوث ودراسات في هذا الميدان من بينها.

١. Crossroads to Islam the origins of the Arab religion and the Arab state، Yehuda D. Nevo and Judith Koren، Prometheus Books، Amherst، NY، 2003)).

٢. Ancient Arabic inscriptions from the Negev، edited by Yehuda D. Nevo، Zemira Cohen، Dalia Heftman،

(٨) Crossroads to Islam: The Origins of the Arab Religion and the Arab State

..(IPS، Negev، Israel، 1993 (النقوش العربية القديمة من صحراء النجف).

٣. Pagans and herders a re -examination of the Negev runoff cultivation systems in the Byzantine and early Arab periods، Yehuda D. Nevo، IPS، ..(Negev، Israel، 1991 (الوثنيون والرعاة:- إعادة دراسة في أنظمة الزراعة القائمة على الأمطار في صحراء النجف خلال الفترة البيزنطية والتاريخ الإسلامي المبكر.

٤. "The Origins of the Muslim Descriptions of the Jahili Meccan Sanctuary" in Journal of Near Eastern Studies، 1990، no 1.. (أصول النقوش الإسلامية في الحرم المكي زمن الجاهلية).

ومن المستشرقين الذين نفوا القدسية السماوية عن القرآن الكريم وادعوا عكس ذلك، وأثاروا الشكّ في وجوده زمن رسول الله ﷺ مايكل كوك Cook وذلك لعدم توافر أدلة مادية كالآثار، وخرج بنتيجة مفادها إن أقرب تاريخ الى وجود نسخة قرآنية ترجع الى القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي. والمستشرق الذي مال الى هذا التفسير المتطرف هو مايكل كوك Michael Cook اليهودي البريطاني + الأمريكي المولود عام ١٩٤٠م، والمستشرقة زميلته باتريشيا كرونه Patricia Crone المولودة عام١٩٤٥م. كان مايكل كوك قد درس في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن تحت اشراف البروفسور برنارد لويس B. Lewis عام ١٩٦٦. وفي عام ١٩٨٦ انتقل الى أمريكا الى جامعة برنستون. له مؤلفات كثيرة من بحوث وكتب مشتركة وغير مشتركة من بينها: -

Hagarism: The Making of the Islamic World 1977، with

Patricia Crone.

- Muhammad (Past Masters)، 1983.
- The Koran: A Very Short Introduction، 2000.
- Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought، 2001 (Winner of the الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي).
- Forbidding Wrong in Islam: An Introduction (Themes in Islamic History)، 2003.. النهي عن المنكر في الإسلام.
- Early Muslim Dogma: A Source -Critical Study، 2003.
- عقيدة أو تعاليم المسلمين الأولى.
- Studies in the Origins of Early Islamic Culture and Tradition، 2004.
- (دراسات في الأصول المبكرة لثقافة والرواية الإسلامية).
- A Brief History of the Human Race، 2005.
- (تاريخ مختصر عن الجنس البشري).

وأسهم البروفسور كوك مع البروفسورة الدانمركية باتريشيا كرونه في تأليف كتاب عنوانه (الهاجريةthe making of the Islamic World Hagarism: لهاجرية:- صنع أو بناء العالم الإسلامي) وهو الكتاب الذي عرضا فيه نظريتهما بشأن القرآن الكريم. والبروفسورة كرونه (مولودة عام ١٩٤٥ في الدانمارك) مستشرقة وعالمة ومؤرخة في حقل التاريخ للإسلام المبكر. وهي تعمل منذ ١٩٩٧ في مركز الدراسات العليا في برنستون في أمريكا -نيوجرسي. ومتخصّصة في الدراسات الإسلامية (القرآن الكريم). وقد عالجت القرآن ككتاب مقدس كما أن هناك تواريخ للكتب السماوية الأخرى للتوراة والإنجيل. وهي مهتمة بمؤلفات التفسير الإسلامي.

وقد كتبت كتابا عن (التجارة المكية وظهور الإسلام the Rise of IslamMeccan Trade and.

في كتاب (الهاجرية) استعرض المستشرقان نظرية تركّز على تحليل جديد (بحسب اعتقادهما) للتاريخ الإسلامي وذلك بدراسة الروايات المعاصرة فقط تلك التي تناولت ظهور الإسلام. وهما يعتقدان أن الإسلام كما صوّره المعاصرون، أي المصادر غير الإسلامية المعاصرة للإسلام، المكتوبة بالآرامية والإغريقية والأرمينية والسريانية المعاصرة للحقبة الإسلامية المبكرة، تقدّم معلومات مفصلة عن ظهور الإسلام. لهذا فهما يعتقدان إن الإسلام (بمعنى الدين الإسلامي) ما هو إلّا تمرد قبلي ضدّ الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطينية (والواقع فإنهما في هذا الرأي ربما نقلا أو وافقا البروفسور آرنولد توينبي في كتابه القيّم Study of History دراسة التاريخ) فهما مكرّران لمثل هذا الرأي. وإن له جذوراً عميقة بالديانة اليهودية (ويلحظ ها هنا النزعة اليهودية في موقفهما؛ فالبروفسور كوك يهودي صهيوني، وهو في دراساته عن الإسلام يركّز الضوء على الأثر اليهودي على الإسلام، وهذا الرأي خير تعبير عن غلوّهما ونظرتهما الدينية الواحدية. لذلك لا يمكننا الأخذ برأيهما!). وفيما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم فإنهما يريان بأن القرآن يفتقر الى هيكلية وبنية موضوعية وشمولية lacking in overall structure وهو أمر ملفت -حسب رأيهما -كذلك فإنّه في كثير من الأحوال غامض في عرضه ويبدو عليه عدم الوضوح في لغته ومحتواه، ويتميز بطابع التكرار في مقاطع كثيرة وآيات كثيرة، وإنّه تعوزه الجدّة والأصالة والروتينية أو تعوزه الحماسة perfunctory لاسيما في مسألة الربط بين المعلومات وانفصال بعضها عن البعض الآخر. وفي المجال اللغوي، فهما يريان، أنه يحتوي على الكثير من الكلمات والعبارات العبرية وذلك مرّده الى تأثره بتأثير يهودي

[طبعا هذه المزاعم بحاجة الى مناقشة وسأقف عليها في بحث مستقل. إنها أفكار خالية من التحليل ومن البيّنة والأدلة، وتتصف بالإعمام، وبإمكان الفرد أن يطلق مثيلاتها على التوراة والإنجيل والزبور وأي حدث أو تطور تاريخي وعلى سبيل المثال لا الحصر على كتابها الذي أختير عنوانه بسذاجة تاريخية لمجرد اختيار عنوان انطلاقا من مبدأ خالف تعرف لا غير!. وإن كتاب كوك الصادر عام ٢٠٠٠م عن القرآن دليل آخر على سوء فهمه، فكيف يكون العنوان: القرآن يتبعه: مقدمة مختصرة جدا The Koran: A Very Short Introduction فمثل هذا التعبير لا يمكن أن يقرن بمؤرخ!.

وفي كتاب البروفسورة باتريشيا (التجارة المكّية وظهور الإسلام) المطبوع في ١٩٨٧م تبين أن أهمية التجارة المكّية في حقبة قبل الإسلام أمر مبالغ فيه كثيرا، وهي ترى أيضا بأن محمد لم يسافر أبدا اكثر من رحلته في أطراف الحجاز والدليل القرآن نظير وصف محمد لأدعاء المشركين على أنهم يماثلون (زراع الزيتون)، وهذا إنّما يدل على أن الحادثة كان لها علاقة بمنطقة ما من منطقة البحر المتوسط (وهو مجرد احتمال، فإن كان رسول الله ﷺ لم يسافر برحلة تجارية أو لنقل مع رحلة تجارية مكّية الى بلاد الشام -الى بصرى مثلا- فيقتضي من المستشرقة أن تلغي من ذهنها نظرية بحيرا الراهب الذي يدّعي المستشرقون أن تأثيره كان بالغ التأثير على النبي-، فإن كان كذلك فينبغي لها أن لا تعترف بسورة (لإيلاف قريش... ورحلة الشتاء والصيف)، وعليها أن تلغي من الأذهان موقع مكة الإستراتيجي في عالم التجارة القديمة، وأن تلغي مفردة حملة إليوس غاليوس والحملات اليونانية والرومانية ضدّ اليمن عبر مكّة والجزيرة العربية، وينبغي لها أن تلغي فقرة الحملة البرتغالية على مكة!!!. وللمستشرقة مؤلفات كثيرة عن مختلف الميادين من التاريخ الإسلامي.

٥. الوجه الخامس:-

كان كلّ من مايكل كوك وزميلته باتريشيا كرونه، وهما تلميذان في التوجه للمستشرق المعروف بآرائه عن جمع القرآن الكريم جون ونزبروغ (أو ونزبرو) John Wansbrough المتوفى عام ٢٠٠٢م. يمثلون البقية الباقية من المستشرقين المحدثين الذين وقفوا موقفا رافضا للمرويات التاريخية عن جمع القرآن الكريم في جميع مراحله التي اعتدنا عليها حتى وقتنا الراهن –مع إنه اعتقاد خاطئ ولا مبرر له – الاعتقاد بصحة تلك الروايات حول عدم وجود القرآن زمن رسول الله بل عدم وجوده بهيأة كاملة في تلك الفترة. ولكنهم ليسوا هم آخر المستشرقين الذين يؤكدون ضرورة الالتفات الى المصادر الأخرى المدونة باللغات الأجنبية التي كانت معاصرة للغة العربية في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. وكما شخّصها المستشرقون السابقون أي المصادر الآرامية والأرمنية والسريانية والحبشية والإغريقية، ولعلنا نضيف اليها الفارسية البهلوية والهندية والبوذية والهندوسية، وما هو أكثر أهمية تلك المسجلة على النقوش في الآثار والنقوش والنقود. كلّ ذلك صحيح وحالة صحية كما عالجتُها في بعض من دراساتي وعرضت فيها بالفعل نقاطا جديدة لم تعرف من خلال اعتمادنا على المرويات المتعارف عليها في مصادرنا السنيّة فقط. في هذا المجال ينبغي أن ننوِّه بأولئك المستشرقين بإنهم جميعا، سواء عن قصد، وهو الأكثر صوابا، أو عن حسن نوايا فقد ألحوا على لزومية الرجوع والاستناد الى المصادر باللغات المعاصرة للغة العربية في القرن الأول الهجري، لكنهم تجاهلوا الرجوع الى المؤلفات الشيعية سواء كان ذلك في الروايات المتعلقة بجمع القرآن الكريم في حقبة الرسالة المحمدية أم الروايات التاريخية في المؤلفات الشيعية وفي التفاسير الشيعية، وهذه الروايات جميعا قد وردت بحسب السلسلة الذهبية التي ترجع أساسا الى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وانتهاءا بالحلقة السندية المباشرة حلقة

رسول الله ﷺ. فهذه السلسلة السندية الموثوقة ستوّفر للباحث العربي والمسلم والمستشرق على حدّ سواء معلومات جيدة عن حياة رسول الله وعن شخصيته وعن جمع القرآن بدرجة خاصة.

المهم إن مسألة تشكيك المستشرقين بالمصادر الإسلامية وفي الأحاديث الشريفة وفي المرويات التاريخية كان معروفا عندهم ومتعارفا عليه فيما بينهم، حتى أن المستشرق المبشر هنري لامانس قد دحض وأنكر الأحاديث جميعها وقد رأى بعدم موثوقية جميع الأحاديث. صحيح إن عددا من المستشرقين الآخرين نظير مونتغمري وات Watt الأسكتلندي والمستشرق غبريللي Gabrelli الإيطالي وغيرهما لم يتفقوا مع رأي لامانس، ولكن الموضوع برمته كان معروفا بين أوساط المستشرقين منذ الجيل الأول. فرائد الكتابة عن تاريخ القرآن ثيودور نولدكة Noldeke على الرغم من موافقته العامة على ما ذهبت اليه مروايات البخاري وغيره من مؤلفي السنن والصحاح فقد كان يميل في الآن نفسه الى توجيه النقد اليها معرضا عن مقارنتها مع مدى مطابقتها للعقل. كذلك الحال بالنسبة الى المستشرق الألماني الآخر جوزيف شاخت J. Schacht وإغناص جولدتسيهر Goldzeher. فهم أيضا قد انتقدوا الأحاديث والمرويات التاريخية في مؤلفات الصحاح والتاريخ لكونها يغلب عليها التزوير والتلفيق والخيال واللامبالاة، وكثير منها لا يعدّ له قيمة وفائدة لاسيما تلك المتعلقة بالأزمنة التي تشير اليها[٩]. المسألة (أي جمع القرآن)في بحثه الذي نشره في مجلة العالم الإسلامي The Muslim Worldفي عام ١٩١٥ بعنوان (عثمان وجمعه للقرآن)[١٠]. فإنه بيّن زيف وعدم

(٩) Harald Motzki ; Alternative Accounts on the Qurq'n's formation " in the Cambridge Companion to the Qura'n ، ed. By Jane Danner Mcauliffe، 1ed. (Cambridge University Press، 2006) Pp. 65 –67.

(١٠) Leone Caetani ; " Uthman and the Recension of the Koran" in The Muslim World (5، 1915) Pp. 180 –190.

موثوقية الأحاديث والروايات التاريخية عن جمع القرآن زمن الخليفة الأول وعمر وعثمان وعدّها لا تمثل الحقبة بالذات.

فهذه المجموعة من المستشرقين القدامى قد أرسوا منهجية نقد الروايات التاريخية وتفكيكها وإبراز ضعفها واضطرابها -طبعا من وجهة نظرهم -، وإذا ما أضفنا اليهم المستشرق الألماني شاولي Schwally الذي حقّق وأعاد طبعة الجزء الثاني من تاريخ القرآن لنولدكة الذي، في حقيقة الأمر، وقف من آراء نولدكة موقفا مخالفا. فقد كتب في هذا الجزء فصلا تفصيليا عن مسألة جمع القرآن وتوصل الى نتائج تختلف اختلافا جوهريا عن النتائج التي سبق أن وصل اليها نولدكة. فهو في هذا الفصل قد رفض رفضا تاما مسألة مصداقية المرويات التي وردت في مؤلفات الصحاح والمصاحف التي تفيد بأن هناك قرآنا قد كتب بعد وفاة النبي، أي مصحف أبي بكر.. وقد قدّم شاوللي رأيه هذا في بحث آخر بعنوان (رأي في قرآن أبي بكر "المنشور في عام ١٩١٥ [١١]. ومن بعده في الجزء الثالث من تاريخ القرآن الذي أعاد تنقيحه كلّ من المستشرق الألماني برجستاسر Gottohelf Bergstrasser المتوفى عام ١٩٣٣م وزميله المستشرق الألماني برتزل Otto Pretzel المتوفى ١٩٤٢م، إذ طبعا الجزء الثالث في ليبزج Leipzig في عام ١٩٠٩ -١٩١٩م. وقد كتب البروفسور برتزل فصلا في هذا الجزء من تاريخ القرآن تحت عنوان مهم عن مخطوطات القرآن الكريم Die Koranhandschriften)) من صفحة ٢٤٩ -٢٧٤. ويتعلق بعثوره على قطع من القرآن مكتوبة على أوراق البردي، يرجع تاريخ كتابتها (كما

(١١) Schawally ، " Die Sammlung des Qurans" in Noldeke ، Gesch.....) part 2، (Leipzig، 1919) Pp. 1 -121.

Schwally ، " Betracbtungen uber die korasammlung des Abu Bakr" in Festschrift Edward Sachau zum siebzigesten Geburtslage، Berlin، 1915 ، Pp. 321 -325.

يرى علماء البرديات) الى نهاية القرن الأول الهجري والى النصف الأول من القرن الثاني الهجري[١٢]. ومع أن العلماء قد شكّكوا أيضا بهذه النماذج من القرآن ورفضوا التوافق عليها، والبعض منهم لم يعترف بها نهائيا؛ غير أنها من زاوية نظرنا قد تكون صحيحة إذا ما جمعنا بينها وبين برديات أخرى تمثل الفترة التاريخية نفسها. فضلا عن موقف المستشرق الفرنسي رجس بلاشير Regis Blachere المتوفى في عام ١٩٧٣م الذي ألّف كتابا طبعه في بيروت، دار الكتب اللبنانية بعنوان (مقدمة للقرآن). وكذلك موقف البروفسور آرثر جيفري Arthar Jeffrey المتوفى في عام ١٩٥٩م، إذ أبدى رأيه في الروايات التاريخية والأحاديث التي لها علاقة بجمع القرآن خلال حياة رسول الله ﷺ ونظرته النقدية والتحليلية عند تحقيقه كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني[١٣].

فهذه المجموعة من المستشرقين صرّحوا عن نظريتهم في رفضهم للأحاديث النبوية وللمرويات التاريخية التي عجّت بها المؤلفات الحديثية والتاريخية بشأن عدّد من القضايا والتساؤلات التي تتعلق بعملية جمع القرآن الكريم نظير:-

- هل كان القرآن مجموعا زمن رسول الله ﷺ؟.
- هل هناك أي دليل على أن الرسول قد كتبه، أقصد كتّاب الوحي؟.
- أم إنه كان متناثرا على الأدوات التي تمّت، بحسب الرواية الأولى رواية معركة اليمامة، على الألواح والعظام والعسب وما الى ذلك؟.
- هل قام الخليفة الأول بالفعل بجمع القرآن، أو أنه كان عمر بن الخطاب؟.
- ما هو الموقف من مصحف زوجة رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب؟.

(١٢) Pretzl ، O. " Die Koranhand- schriften " in The Th. Noldeke ، Geschichte ..." Part. 3، Leipzig ، 1938 Pp. 249 –274.

(١٣) See Arthur Jeffery ، Op. Cit.

- ما هو الموقف من الناسخ والمنسوخ وفقدان بعض السور والآيات من قرآن أبي بكر وعثمان؟.
- وما هو الموقف من مصحف عثمان، أهو الخليفة الذي جمع القرآن أم إنّه دوّن مصحف حفصة فحسب؟.

وقد تباينت آراؤهم بالنسبة الى مواقفهم من هذه التساؤلات، وقد استندوا في استنتاجاتهم ورؤاهم على وفق المنهج العلمي في تحليل الروايات والأحاديث وتفكيكها وبيان مدى قوتها أو ضعفها للوصول الى حقيقية قبولها أو رفضها. فالمستشرق شاولي مثلا قد عزل تلك الروايات والأحاديث لكونها مضطربة ومتعارضة في محتوياتها ومضامينها وأدائها incompatible contentions. فالروايات تزعم إن القرآن جمع أولا زمن أبي بكر، وروايات أخرى تزعم إنّه كان زمن عمر بن الخطاب؛ أو إن أبا بكر قد ابتدأ الجمع وإن عمرا قد أكمله، أو إن عمرا قد ابتدأ به وإن عثمان قد أكمله، أو إنه من عمل عثمان فقط.

كذلك فإن المصادر الإسلامية والأحاديث قد أخفقت في التمييز الحصيف بين عملية جمع القرآن أو جمع المصحف. والملاحظ أن شاولي ق د تعامل مع القرآن الكريم في دراساته على أنه "أثر أدبي literary monument" لا كما نؤمن به (نحن المسلمين) إنه كتاب الله العزيز المنزّل من الله تعالى بواسطة الملك جبرئيل عليه السلام. ويكاد أن يكون المستشرق برجستراسر Bergastrasser محقّق الجزء الثالث من تاريخ القرآن لنولدكة يكرّر الموقف نفسه من جمع القرآن ومن رأيه الناقد للأحاديث والروايات التاريخية؛ فيقول في مقدمته:- إن القرآن على وجه الحصر أثر أدبيّ. ويستنتج بأن الروايات الإسلامية لا تقدّم للباحث إلّا مساعدة قليلة جدا بما له علاقة بكيفية جمع نصوص القرآن. وهي بالأحرى نصوص وروايات متضاربة تضاربا كبيرا، فضلا عن كونها مشوشة تشويشا كبيرا أيضا. وهي على العموم تمثل ما حلّ بها خلال مراحل تدوينها

من التعديل والتحوير والتزييف. (برتون Burton ص٢٢٥) أمّا عن موقفه إزاء مسألة جمع أجزاء من القرآن فيرى: -إن أجزاء منه قد كتبت فعلا في زمن النبي ولكنها تركت على شكل بدائي أو أولي rudimentary. ويرى هذا المستشرق أنه من الصعب جدا أن نتكهن عما كان في هذا المصحف، وكم كان بالفعل مكتوباً فيه من قِبَله -أي من قِبَلِ النبي -وكم كان قد أضيف اليه من قبل جمّاع آخرين؟. وموقف شاوللي من المرويات الإسلامية بخصوص هذا الجمع، أي جمع المصحف أبّان عهد أبي بكر سلبي، إذ يرى أنها موضوعة وغير مقبولة.

وخلاصة هذا القسم من البحث المتواضع قولي إذ ناقشت في كتابي تحت الطبع الآن موضوعا دقيقا يسلط الضوء على التساؤل الذي كان يشغل فكري بشكل مستمر ألا وهو الدافع والسبب الذي طرح فيه المؤرخون ومؤلفو الصحاح والتفسير والمصاحف هذا المشروع الضخم والجبار وأقصد جمع آيات وسور القرآن الكريم بعد انتقال رسول الله ﷺ الى جوار ربّه الأعلى بحسب رواية البخاري المتعلقة بمعركة اليمامة خلال ما سمي في التاريخ بحروب الردّة؛ المعركة التي جاء نقلا عن الخليفة الراشدي الأول ورفيقه عمر بن الخطاب من قتل أو استشهاد عدد من الصحابة من قرّاء القرآن وحفظته في هذه المعركة. لذلك انتدب الخليفة وعمر بن الخطاب الصحابي زيد بن ثابت بضرورة الإسراع في جمع ما تمّ كتابته من آي القرآن وسوره في حياة رسول الله على ما عبّرت عنه الرواية ووصفته، رواية معركة اليمامة، من عسب النخيل واللخاف والأكتاف والجريد وغير ذلك من أدوات وعدّة هي أصلا غير جديرة بالكتابة وغير قويمة للثبات والديمومة لاسيما في أوقات القيظ الحار والروطبة العالية التي يحسب لها ألف حساب في عصرنا هذا. فالتساؤل المحير والملحّ هو لماذا أقصي الإمام عليّ والصحابة من كتّاب الوحي عن هذه

العملية الخطيرة؟. فالكتاب الذي سيرى النور قريبا يتناول بالتفصيل الدقيق هذه الإشكالية الواقعية. لماذا؟. لأن الباحث وجد توّجها ملفتا جدا من المستشرقين ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نحو هذه المسألة بالذات ضمن دراساتهم واسهاماتهم عن القرآن الكريم. وهي دراسات في لحمتها وسداها تشير الى شبهاتهم بخصوص كتاب الله عزّ وجلّ. فجميع المستشرقين الذين أتينا على ذكر دراساتهم بمختلف اللغات وفي شتى الميادين المتعلقة بكتاب الله وجمعه وتدوينه إنّما تنطلق من اعتمادهم على مجموعة من الروايات التي وضعت في كتب الصحاح والسنن والمصاحف بصيغة أحاديث وهي ليست كذلك؛ فجاء المستشرقون والمبشرون منهم بشكل خاصّ ليخرجوا بمخرجات جريئة واستفزازية بشأن القرآن الكريم، في الوقت الذي يقول الله تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ آيات ٤، ٥، ٦. وقوله عزّمن قائل في سورة الشعراء ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ آيات ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠. فالمستشرقون سوف لن يصدّقوا كلام الله هذا ويرجعون الى أقوالهم السابقة التي مفادها بأن النبيﷺ هو الذي كتب القرآن أو هو الذي قد تعلّمه من راهب أو أنه بالفعل كان شاعرا وعلى علم بالتراتيل المسيحية ولذلك، كما انطلق خيال بعضهم، كانت السور

المكّية الأولى تتميز بشاعريته، ولكن عندما هاجرﷺ الى المدينة تضاءلت شاعريته فتميزت الآيات والسور المدنية بصفات أخرى. أقول أإن هؤلاء يكتبون لأنفسهم ولقرائهم المتطرفين فحسب ألا سألوا أنفسهم هل كان الرسول يعيش لمفرده؟. أم بين وسط اجتماعي وفكري من عرب وغير عرب مسلمين وغير مسلمين فهلا شكّكوا بمثل ما شكّك المستشرقون المعاصرون وبعد ألف وأربعمائة سنة تقريبا من وفاته. فالنصوص التي ينشدون الوصول اليها في اللغات السريانية والآرامية والحبشية وغيرها لم تؤيد أو لم تدعم آراءهم، وتلك النصوص التي يتوقعونها أو يتوقعون ظهورها لم تظهر بعد!. بينما نجد الإسلام والقرآن ثابت ومنتشر، فكيف نوفق بين هذا وذاك؟!.